تضعف الصبغة السلبية لسمة الاستعمار، وما يتبعه من مآس تلحق بسكان البلاد المحليين، فقد دأبت الجغرافيا التاريخية الاسرائيلية على اقناع العالم بأن هذا النوع من الاستعمار هو استثنائي، من حيث ان اليهود والمستوطنين «يعودون الى أرض الآباء والاجداد، وليس الى منطقة جديدة». كذلك، فقد ركّز الجغرافيون الاسرائيليون على ان هذا الاستعمار ما هو الاّ ظاهرة تحديث وتحضُّر، مثلها كمثل المستعمرات الالمانية التي أُنشئت في شمال فلسطين والساحل، منذ نهاية القرن التاسع عشر. لقد تجاهلت الجغرافيا الاسرائيلية، كلياً، أهم سمة سلبية للاستعمار، وهي الخاصة بالاستيلاء على أخصب المناطق الزراعية في البلاد، بعد تجريدها من اصحابها المحليين، بصورة أو بأخرى. وبدل ذلك فقد وُصف هذا الاستعمار بالعمل «الطلائعي» والعمل الايديولوجي، وحتى عمل مشاركة جماعية تمثّلت بنمط استيطان خاص، مثل الكيبوتس والموشاف.

هنالك عامل آخر موضوعي، وله دور هامّ في دفع الجغرافيا التاريخية الاسرائيلية للنظر الى فلسطين بصورة تعكس فيها الاحلام الصهيونية والنظرة اليهودية بشكل ملحوظ. هذا العامل يعود الى طبيعة أسلوب البحث الجغرافي التاريخي. ففي الجغرافيا التاريخية يُبحث، عادة، في تغييرات مكانية في فترة زمنية عابرة. وعليه، فان الباحث يجب أن يَبْني استنتاجاته على معطيات متواجدة، وعلى قدرته على تخيّل «الحقيقة النسبية». فمثلاً، قد يكون بعض المعلومات عبارة عن «معالم مادية» (historical relicts)؛ وعندها يحاول الباحث ان يقوّم هذه المعالم، ويقوّم دورها في معرفة الظروف والمتغيرات المكانية التي أحاطت بهذه المعالم في الفترة الزمنية المدروسة. من هنا، فقد يقع الباحث الاسرائيلي، وبسهولة، في خطأ، عندما يحاول ان يبرز قيمة بعض المعالم اليهودية المقدسة بصورة مبالغ فيها، وبهدف ابراز الهوية الجغرافية اليهودية للمكان. وبالتالي، فان هذا الامر يؤدي الى نتيجة غير موضوعية لوصف التغييرات المكانية. ومثال آخر على انتهاج طرق بحث في الجغرافيا التاريخية، والتي قد توقع الباحث الاسرائيلي في موقع من اللاموضوعية والتحيّز، هو عند انتهاجه طريقة التوصل للتغييرات المكانية لفترة زمنية، من طريق درس المناخ الاجتماعي، من معتقدات وعادات سكان المنطقة الاصليين الذين عاشوا في تلك الفترة، وفي ذلك المكان. فاذا كان عند الكاتب نظرة سلبية مسبقة، او ايجابية، عن سكان، أو شعوب، المنطقة، فانه لن يتمكّن، عندها، من تقديم تحليل موضوعي للمناخ الاجتماعي. وعليه، فان نتيجة بحثه سوف تكون غير موضوعية أيضاً.

التعامل مع الجغرافيا العربية

نبدأ، هنا، بالسؤال المركزي لهذه الدراسة، وهو كيف يبحث الجغرافي الاسرائيلي في الظواهر الجغرافية المتعلقة بالانسان العربي الفلسطيني؟ ان مجموعة الاسئلة التي يسألها، ومجموعة الاجوبة التي يجيب عنها، تشكل النهج الاسرائيلي (paradigm) الخاص في «أسرلة» الجغرافيا العربية لفلسطين.

يمكننا تحديد ثلاثة مجالات مختلفة من الدراسات الجغرافية البشرية لفلسطين، التي يستخدمها الباحث الاسرائيلي لدرس ملامح الجغرافيا والظواهر الجغرافية العربية، بشكل أو بآخر، بصورة مباشرة أو غير مباشرة. وفي كل من هذه المجالات تُسأل أسئلة مختلفة، حسب الاهداف التي تُحدد مسبقاً، وعند الاعداد لهذه الدراسات.

ونحن، هنا، لا نزعم اننا قد فحصنا جميع الدراسات الاسرائيلية الخاصة بجغرافيا فلسطين البشرية؛ ولكننا اطلعنا على الجزء الاكبر منها، وخاصة ما كتب عن الوسط العربي في